التاريخ فى سير أبطاله

ابراهام لنكولن

هدية الاهرام الى عالم المدنية

للاستاذ محمود الخفيف

يا شباب الوادى ! خذوا معانى العظمة فى نفسها الأعلى من سيرة هذا العصامي العظيم ... ...

— ١٨ —

وكان ابراهام فى الحادية والخمسين من سنى عمره بينما كانت تتأهب البلاد لانتخاب رئيس جديد للولايات إذ كان عام سنين وثمانمائة وألف هو نهاية مدة الرئيس القائم ؛ وكان انتخاب رئيس الولايات أهم الحوادث السياسية التى تشهدها البلاد ، وإنه لأعظم خطرا اليوم وأبعد فى مصير البلاد أثرا ؛ ذلك أن الانتخاب إنما يقوم هذه المرة على ما يشغل الناس فى أمر العبيد وفي أمر الوحدة، لهذا كان ذلك العام نقطة يبدأ منها تاريخ البلاد عهد جديدا ويتدرج فى مسلك جديد ...

وكان الحزب الجمهوري وهو الذى ينتمى إليه ابراهام ويعد من أبرز رجاله ، أقوى الأحزاب نفوذا وأعزها نفرا ، ، إذ كانت مبادئه أقرب من غيرها إلى قلوب الناس فى الشمال فهو يعمل على أن يحول دون انتشار العبيد وهو يكره نظام الاستبداد ولكنه يرعى جانب الدستور فى كل ما يقول أو يعمل

أما الحزب الديمقراطى فقد هان على الناس أمره بانقسامه وتنازع رجاله ؛ ففريق من أهل الجنوب يكرهون اليوم دوجلاس لما كان منه أيام مجادلاته مع لنكولن ... أو لم يصرح إن لكل ولاية الحق كل الحق أن تقضى على نظام العبيد فيها متى شاءت ذلك ، فوقع بتصريحه هذا فى حبائل خصمه ؟ ثم إن فريقا من الديمقراطيين فى الشمال قد كرهوا منه معارضته الرئيس بيوكانون فى دستور كنساس حتى لقد فكر بعض الجمهوريين فى ضمه إلى حزبهم ! وإنه اليوم ليجنى ثمار غرسه. وهل كان له أن يجنى من الشوك العنب ؟ ... لذلك فشل الديمقراطيون حينما عقدوا مؤتمراً لهم ليجمعوا أمرهم على رجل يمدونه للرياسة وانفض مؤتمرهم وقلوبهم شتى .

وأخذ الجمهوريون يستعدون للمعركة القادمة فامتلأت صحفهم بفيض أقلامهم ، وماجت كبريات البلاد فى الشمال بمظاهر نشاطهم ومعالم استعدادهم .

فى ربيع ذلك العام الفذ عقد الجمهوريون فى أليتواس مقاطعة لنكولن ، مؤتمراً لينظروا فى نشر الدعوة له فى الولايات ليحظى أبراهام بترشيح الحزب إياه فى مؤتمره العام ليكون رجله فى انتخاب الرياسة ! وفى ذلك المؤتمر التمهيدى الذى عقد فى مدينة ديكاتور اشتدت حماسة المؤتمرين لابراهام فما تهتف الألسن إلا به وما تحنو الجوانح إلا عليه ؛ ولا يقتصر الأمر على المؤتمرين فها هو ذا جمع حاشد من الناس يهتف به فى شوارع المدينة ، وعلى رأس هذا الجمع ابن عم له كان يعمل معه فى شق الأخشاب قبل ذلك بثلاثين سنة ... أنظر إلى ابن عمه هذا يحمل العلم على قطعتين شوهاوين من الخشب ، وهو ينبئ الناس فى زهو أنهما من صنع أبراهام قطعتهما فأسه يوم كان يعمل فى الغابة، فهو من الناس وللناس ! ثم انظر إلى وجوه القوم كيف تهلل بشراً ، واستمع إلى ألسنتهم كيف تضيف إلى ألقاب أبراهام التى ألفوها لقباً جديداً ، فهو أبب الأمين وهو أبب العجوز وهو أبب قالق الأشجار ...

وانعقد فى الصيف المؤتمر الجمهورى العـام فى شيكاغو ، وتدارس المؤتمرون طويلاً ثم أعلنوا ما اتفقت عليهم كلمتهم من المبادئ ، فلم تخرج عما أوضحه أبراهام فى خطبه وأحاديثه ، وقد احتشد فى تلك المدينة عـدد عظيم من أهلها ومن غير أهلها بلغ أربعين ألفا ليشهدوا هذا المؤتمر العظيم والتفت تلك الجموع حول مكان الاجتماع ...

وجاء دور الانتخاب واجتمع ممثلو الولايات لاختيار رجل يمثل الحزب جميعا ، وجرت فى القاعة أسماء خمسة أشخاص يختار منهم واحـد ، من هؤلاء لنكولن من سبرنجفيلد وسيوارد من نيويورك ... وكان سيوارد فى نظر أهل الشمال الزعيم الحقيقى للحزب الجمهورى فهو رجل واسع الثقافة عظيم الخلق يحب بلاده ويكبرها وهو كأبراهام يمقت نظام العبيد وقد ظل يحاربه زهاء ربع قرن فى غير هوادة .

وظن الناس وشاع فيهم بادئ الأمر أن الأمر سيتم لسيوارد فى هذا المؤتمر ؛ وكذلك ظن سيوارد فلم يكن يحس منافسة ابراهام إياه ؛ أما ابراهام فكان فؤاده يحدثه أن النصر له هذه المرة فهو يحس فى أعماق نفسه دون أن يدرى لما يحس سببا أنه عند الناس أرجح كفة من صاحبه وأن شبه لهم غير ذلك

ولـكن القلق يساوره أحياناً وهو جالس فى سبرنجفيلد فى قاعة أحد أصدقائه من رجال الصحافة أثناء انعقاد المؤتمر فهو يقول لهذا الصديق « إنى أعتقد يا صديق أنى سأعود ثانية إلى مكتب المحاماة وأعمل عملى فى القانون ... » ثم يعاوده الأمن برهة ويخالجه الشك برهة كما يحدث عادة فى مثل هذه الأحوال حينما ينتظر المرء عاقبة أمر يهمه ؛ وأى أمر هـذا الذى كان يتوقع إبراهام عاقبته ؟ إنه اليوم فى مفرق الطرق من حياته ، فإما إلى رسالته وإما إلى حرفته ...

لقد طال به الانتظار حتى كاد أن يسأم، ولم يأته نبأ عن المؤتمر فلينصرف إلى القراءة حيناً ، وإنه لـكتاب شعر لبيرنز ، هذا الذى يقلب صفحاته ، ويقرأ كما يقرأ المرء فى مثل تلك اللحظات بعينيه أكثر منه بعقله ؛ ولـكنه يدع الـكتاب ليفكر وليتنازع فؤاده الشك واليقين ...

والمؤتمر منصرف إلى عمله فى شيكاغو يفتتح فى رواية البلاد فصلاً جديداً سوف يترتب عليـه كل ما يليه من فصول ... والناس من حوله يموج بعضهم فى بعض ، وهم يتساءلون لمن يكون النصر ؟ فيؤكد هذا بأن النصر لسيوارد فى إشارة حازمة ولهجة جازمة، فيقبل عليه جماعة منهم فرحين؛ ويصيح ذاك : كلا بل النصر لفالق الأخشاب . فيتهافت عليه كثيرون ...

وتعلن نتيجة الدفعة الأولى للولايات فإذا سيوارد يزيد على إبراهام بسبعين صوتاً وصوت ، فيهتف أنصار سيوارد ويكتئب أصحاب ابراهام ... وتعلن الدفعة الثانية فاذا ابراهام لم يبق بينه وبين سيوارد سوى ثلاثة أصوات ... ويسود الصمت فى جنبات المؤتمر وقد علقت الأنفاس وشخصت الأبصار وخفقت القلوب وتأهب رجال الصحافة لتلقى النبأ الأخير . وما هى إلا لحظة حتى يرتفع صوت باسم لنـكولن، فهبت فى المكان عاصفة هائلة من الهتاف والتصفيق تجاوبها خارجه عاصفة أشد منهـا قوة وأطول أمدا إذ يظل الناس يتعانقون ويتصايحون ويقذفون بقبعاتهم فى الهواء ويتواثبون ويرقصون زهاء ربع الساعة كأنما مسهم طائف من الجنون ...

وابراهام فى غرفة صاحبه فى سبرنجفيلد يوجس خيفة فى نفسه طوراً ، ويثق فى النصر طوراً ، وحوله جماعة من أنصاره ينتظرون كما ينتظر ، وإنهم كذلك إذ يقبل شاب من مكتب البرق يحمل رسالة ويطفر بها كما يطفر العصفور من الرح ويقبل على ابراهام فيحمل إليه النبأ السار، ثم يهيب بالحاضرين أن يهتفوا ثلاث مرات لأيب الأمين رئيس الولايات المقبل ...

ويقبل على ابراهام صحابته وفى مآقيهم دموع الفرح وعلى ألسنتهم ما لا يفى بالتعبير عما فى قلوبهم من معانى الابتهاج ، وهو منشرح الصدر مثلج الفؤاد ولـكنه واقف بينهم معقود اللسان لا يجد من الـكلام ما يفصح عما فى نفسه، وبعد برهة يقول لهم : « إن امرأة صغيرة قصيرة هنالك فى بيتنا يسرها أن تعلم هذا النبأ. يقول ذلك ويمضى مسرعاً إلى مارى فيفضى إليها بأجل وأبهج ما انفرجت عنه أمامها شفتاه ...

ويأتى بعد ذلك وفد من قبل الحزب يعلن إليه رسمياً نتيجة الانتخاب فيلقاهم ابراهام فى داره ، فما يبرحونها إلا وقد ارتبطت قلوبهم بقلب ذلك الرجل العظيم ... وهكذا يظفر ابراهام لنـكولن

قالق الأخشاب بتأييد أكبر حزب فى البلاد ... هكذا يظفر النجار ابن النجار فيصبح رجل الساعة ومناط الرجاء فى قومه

ولبث ابراهام نحو أربعة أشهر فى سبرنجفيلد حتى حان موعد الانتخاب للرياسة ، لبث فى المدينة هذه المدة فما عهد عليه أحد من أهلها أدنى تغير عما كان عليه ، فهو فى الناس فرد منهم وإن كان بسبيل أن يذهب عما قريب إلى البيت الأبيض ... وهل كان مثله يتغير حتى بالذهاب إلى هذا البيت العتيد؟ وهل كانت عظمته إلا منبعثة من نفسه حتى يتكبر أو يطغى ؟ إنما هو من الناس وللناس وسوف يظل أول خادم لهم حتى تزهق روحه في سبيل مبدئه ...

وظلت سبرنجفيلد أياما فى ابتهاج وصرح وابراهام يلقى الوفود فى داره خافضا لهم جناحه باذلا لهم من وده وحبه أكثر مما يبذلون وهم معجبون برجلهم الذى استحق محبتهم وظفر بتأييد كبارهم وتعظيم صغارهم ... يعجبون منه بكل شيء وخاصة ذلك التواضع الذى يبدو رائع الجلال باهر الجمال ... لقد أحاطوا بداره ليلة بحيّ الوفد وطلبوا إليه أن يخطبهم فأطل عليهم قائلا « أى مواطنى ! توجد لحظات فى حياة كل سياسى حينما يكون خير ما يفعل أن يحتفظ بشفتيه مضمومتين؛ وإنى أحسب أن مثل تلك اللحظات قد حانت الآن بالنسبة إلى »

ولما ضاقت بالوفود داره جعل لقاء الناس فى قاعة من مقر الحكم للمدينة ، ولا يرد عن مجلسه أحداً ، ولا يأخذ الحيطة من أحد ، فإذا سأله شخص عن أمر فى السياسة ناقشه فى هدوء أو أعطاه نسخة من مجموعة خطبه ؛ وهو يذهب بنفسه إلى مكتب البريد فيحضر رسائله المتعددة التى تأتيه من كل فج فيفضها ويقرؤها ويرد على ما يتطلب الرد منها إما بيده أو بيد كاتب قد اتخذه له منذ قريب ...

ولقد سخط الناس فى الجنوب على اختيار رجال حزبه له ؛ وأصابهم من ذلك كرب شديد وضيق ، وراحت صحفهم تناله بفاحش الهجاء، فهو تارة الجمهورى الأسود، وآونة قالق الأخشاب الجاهل ، وأحياناً الرجل الذى لا يحسن إلا النكات الخشنة المسفة ، وطوراً الشيه بالنورلا ؛ وهو يقابل ذلك كله بالصبر الجميل مترفعا ترفع الكرام عن جهل اللئام ... ولم يحدث منذ تألف الاتحاد أن قامت العداوة والبغضاء بين أهل الجنوب وأهل الشمال مثلما قامت بينهم عقب اختيار الجمهوريين لنكولن

أما أنصاره فما فتئوا يثنون عليه فى صحفهم وأحاديثهم ويدفعون عنه مكر أعدائه ويدحضون أباطيلهم ؛ وضرب سيوارد للناس مثلا طيبا فكتب فى إحدى صحف نيويورك يثنى على ابراهام ويهنيء البلاد باختياره هذا ويتمنى له الفوز فى المعركة الأخيرة ...

وظل هو فى سبرنجفيلد لا يتكلم عن نفسه ولا يأبه لما يتقول عليه أعداؤه ؛ أما عن أنصاره فكان يرتاح إلى دفاعهم وإن كان ليتبرم بينه وبين نفسه بما يزجونه إليه من عبارات المديح والإطراء . وما فتئت الكتب تلقى إليه من أنحاء البلاد وهو يجيب عنها غير متخلف ولا مبطيء ؛ ومن أجل تلك الكتب وأغربها كتاب جاءه من بنت صغيرة تستفهمه فيه عن أسرته وتطلب إليه أن يطلق لحيته. ولقد رد عليها بهذا الكتاب قال : «أى فتاتى الصغيرة العزيزة : تلقيت كتابك الجدير جدا بالقبول ، المؤرخ فى ١٥ من اكتوبر عام ١٨٦٠ ، وإنى آسف أن أراني مضطرا إلى إخبارك أنه ليس لى ابنة ... إن لى ثلاثة بنين عمر الأول سبعة عشر عاما والثانى تسعة والثالث سبعة ، ومن هؤلاء ، وأمهم معهم تتألف أسرتى كلها .. أما عن إطلاق لحيتى ، أفلا ترين ، ولم تكن لى من قبل لحية ، أنى إذا أطلقتها الآن إنما آتى بذلك ما يعد ضربا من التكلف السخيف ؟ ... هذا وإنى لك الصديق الوفى المخلص. ا . لنكولن » ...

وهبت من الجنوب الشائعات بالنذر ، فلقد ازدادت الدعوة إلى الانسحاب من الاتحاد ، وإلى إعلان التمرد والعصيان إذا قدر أن ينتخب لنكولن رئيسا للولايات؛ ونمى إليه فيما نمى من الأنباء أن أهل الجنوب يطاردون بالقوة كل من يدعو إلى تحرير العبيد فى ولاياتهم . على أن أعظم ما أزعجه يومئذ ما أفضى به إليه قائد من القواد من أنهم فى الجنوب يعدون معدات القتال ! ... لقد ارتاع ابراهام لذلك وأحس بميل شديد إلى معرفة كل شيء ولكنه يشعر ، ولم ينتخب للرياسة بعد ، أن ليس له حق فيما هو فيه من الاستطلاع فيطلب إلى ذلك القائد أن يتبين قبل أن يزيده علما بما يجرى فاذا لم يكن فى الإفضاء بما يعلم خيانة فليفض به وهو يترك الحكم فى ذلك له ...

(يتبع)

الخفيف